مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد
https://jfpsu.journals.ekb.eg/

P-ISSN: 2356-6493 E-ISSN:2682-3551

أثر الموت الأسود على المجتمع الإنجليزي في النصف الثاني من القرن ١٤م

إسراء السيد إسماعيل حواله
معيدة بقسم التاريخ والحضارة
كلية الآداب، جامعة بورسعيد
e.hwela10@gmail.com

10.21608/jfpsu.2024.330112.1393

تاريخ الإرسال : ٢٠٢٤/١٠/٢١م **تاريخ القبول :** ٢٠٢٤/١١/٣٠م
تاريخ النشر : ٢٠٢٥/١/٢٧م

This is an open access article licensed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (CC BY 4.0). http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

أثر الموت الأسود على المجتمع الإنجليزي في النصف الثاني من القرن ١٤م

مستخلص

يتناول هذا البحث تأثير الموت الأسود على البنية الاجتماعية للمجتمع الإنجليزي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر؛ حيث كان له عظيم الأثر على الأسرة والفرد والجماعة ورجال الدين والساسة والفقراء والأغنياء على حدٍ سواء، وأثَّر على مكانة المرأة؛ حيث فقدت الكثير من حقوقها التي قد كفلها القانون العام الإنجليزي لها قبل الموت الأسود. وكان هذا الوباء هو السبب في تدمير العلاقات والروابط داخل الأسرة الإنجليزية، فنشر الخوف والفزع والموت بين الناس، وكان السبب في التغيرات التي طرأت على الطقوس الجنائزية، وعملية دفن الموتى التي أصبحت غير إنسانية خلال تلك الفترة؛ ونتيجة لما أحدثه من زيادة في عدد الوفيات بين الطلاب في إنجلترا، توقفت الحركة التعليمة؛ حيث ترتب على الموت الأسود ارتفاع هائل في معدلات الوفيات. وكانت هناك مجموعة من العوامل التي استطاع من خلالها الموت الأسود أن يختار ضحاياه؛ فقد تسبب الموت الأسود في الشتات الذي أصاب المجتمع في صميم كيانه.

الكلمات المفتاحية: آثار اجتماعية، الموت الأسود، إنجلترا في القرن الرابع عشر.

The Impact of the Black Death on English Society in the Second Half of the 14th Century

Abstract

This research deals with the impact of the Black Death on the social structure of English society in the second half of the 14th century; as it had a great impact on family, individual, group, clergy, politicians, and the poor and the rich alike. In addition, it affected the status of women; as they lost many of their rights that were guaranteed by English common law before the Black Death. This epidemic was the reason for the destruction of relationships and ties within the English family, spreading fear, panic and death among people, and changing funeral rituals and the process of burying the dead, which became inhumane during that period. As a result of the increase in the number of deaths among students in England, the educational movement stopped. This is mainly because the Black Death resulted in a huge increase in death rates. There were a group of factors through which the Black Death was able to choose its victims; the Black Death caused the dispersion that affected society at the core of its being.

Keywords: Social impacts, Black Death, England in the 4th century.

- **المقدمة**

على الرغم من حقيقة أن الموت الأسود قد خلف وراءه ضحايا تقدر أعدادهم بالملايين أو عشرات الملايين؛ إلا أنه كانت له حسناته، وتتمثل في أنه عجَّل بالنهضة والانتقال بأوروبا من عصور وسطى راكدة إلى عصور وسطى واعدة، وتحولت أوروبا بعد الطاعون لمجتمع جديد في الملامح والتقسيمات. لقد كتب الكاردينال (جاسكيه F.A.Gasquet) في ١٨٩٣م أن الموت الأسود قد حدد نهاية العصور الوسطى(١).

واتفق في هذه الرؤية رائد التاريخ الاجتماعي (كولتان G.Coultan) الذي رأى أن التناقص في عدد السكان الناجم عن الطاعون له نتائج إيجابية في الارتقاء بالمستوى المعيشي لمن تبقى على قيد الحياة، وأسهمت هذه الثروات في التسريع بالنهضة والإصلاح البروتستانتي، بعد ما حلَّ بالكنيسة المسيحية من تدهور(٢).

أما (طومسون J.W.Thompson) فلم يربط بين الموت الأسود والنهضة، وأكَّد على أثره النفسي وأن ما خلَّفه من دمار كان أعمق من الحرب العالمية الأولى، لقد حصد الموت الأسود من جيل واحد زهرة أبنائه، ومن بقي على قيد الحياة عانى من أزمة نفسية وأخلاقية (٣). وأيَّد ذلك المؤرخ (Yves Renouard إيف راينوار)الذي وصف الموت الأسود بأنه واحد من أسوأ ثلاث كوارث في العالم(٤).

ولقد رأى مجموعة من الماركسيين أن الطاعون كان جزء من أزمة عامة اقتصادية واجتماعية أصابت المجتمع الأوروبي، فالمجتمع الغربي كان على وشك الانهيار بالفعل، منذ منتصف القرن الثالث عشر ، حيث عانى من الأزمة الاقتصادية والمجاعة والفقر؛ لأن الموارد لم تعد تكفي الزيادة السكانية(٥). وأكَّد المؤرخ (ريمون ديلاتش Raymond) delatouche *على الأزمة الأخلاقية أيضاً التي حلَّت بالمجتمع، وتكمن في الخلافات

(1) Gasquet. F, The Great Pestilence A.D. 1348 to 1349: Now Commonly Known as the Black Death, Literary Licensing, LLC, 2014, pp. 71–91.
(2) Coultan. G, the black death, Ernest Benn, 1929, p. 79.
(3) Thompson. J.W., the aflrmath of th black death and the after math of the great war: The University of Chicago Press, 1921, pp.26-21.
(4) Renouard.Y, Conséquences et intérêt démographique de la Peste noire de 1348, Institut National d'Etudes Démographiques, 1948, p.3.
(5) Postan .M, medieval agriculture and general problems cam. Bridge, 1956. pp. 87-88.

والانقسامات الفلسفية والدينية، ففي نهاية العصور الوسطى مرت أوروبا عامة – وإنجلترا خاصة – بأزمة كبيرة كانت بدايتها الزيادة السكانية في القرن الثالث عشر الميلادي، وكان الطاعون الجزء الأهم من هذه الأزمة، حيث نهض الطاعون بمعظم المتغيرات التي حدثت في هذه الفترة [١].

- **أهداف الدراسة**

١. التعرف على التغيرات الاجتماعية التي أحدثها الموت الأسود بعد وصوله لإنجلترا ١٣٤٨م.
٢. تسليط الضوء على الأسرة الإنجليزية والحياة اليومية بعد الموت الأسود.
٣. التعرف على التغيرات التي طرأت على الطقوس الجنائزية والدفن.
٤. التعرف على وظيفة حاملي الجثث ومدى خطورتها وقسوتها.
٥. التعرف على أثر الموت الأسود على رجال الدولة والوظائف.
٦. التعرف على دور الرهبان ورجال الدين في زمن الموت الأسود وأثره عليهم.
٧. تحديد الفئات التي استهدفها الموت الأسود أثناء الجائحة الثانية ١٣٤٨م.
٨. تحليل الأسباب التي أدت إلى جعل العامة فريسة سهلة للموت الأسود.
٩. التعرف على مكانة المرأة بعد الموت الأسود وحقوقها ومدى تأثيرها في المجتمع.

- **أهمية الدراسة**

تكمن أهمية الدراسة الحالية في أنها توضح الآثار التي خلفها الموت الأسود على المجتمع الإنجليزي والتي غيرت شكله الاجتماعي؛ من حيث تعداده السكاني بسبب معدلات الوفيات المرتفعة، أو من حيث عاداته وطقوسه الدينية وطبيعة حياته اليومية؛ وذلك محاولةً لعدم الوقوع فريسة أو ضحية لهذا الوباء، ومن هنا يتمكن القارئ من فهم التغيرات الجذرية التي كانت السبب في السير بإنجلترا وأوروبا عامة من عصورها المظلمة إلى عهدها المزدهر الجديد.

---

(1) Creighton.C, A History of Epidemics in Britain, The University Press, 1891,P.120. See; Shrewsbury. J. F. D., A History of Bubonic Plague in the British Isles , Cambridge University Press, 2005, p.37

* هومؤرخ ومهندس زراعي فرنسي ولد في ١٤ أغسطس ١٩٠٦ في لافال وتوفي في ٦ مايو ٢٠٠٢١ .

- **الدراسات السابقة :**

من ابرز الدراسات السابقة التي اعتمد عليها البحث :

١- جوزيف بيرن ، الموت الأسود، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ترجمة عمر سعيد الأيوبي. ٢٠١٣،

لقد اعتمد الباحث على هذه الدراسة التي تناولت الحياة الاجتماعية لأوروبا بشكل عام أثناء الموت الأسود خلال الجائحة الثانية في القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلادي، حيث وصفت هذه الدراسة التأثيرات والتغيرات التي أصابت المجتمع في غرب أوروبا من ضمنها إنجلترا سواء في الأسرة أو الكنيسة .

2- Gasquet. F.A, The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death, Simpkin Marshall, Hamilton, Kent and Co. Limited. London, 1893.

واعتمد الباحث على هذه الدراسة لفرانسيس جاسكيه عن الموت الأسود خلال الفترة من(١٣٤٨-١٣٤٩) والتي تتبعت وصول الموت الأسود لإنجلترا ومعدلات الوفيات في كل مقاطعة من المقاطعات الإنجليزية سواء بين رجال الدين أو الدولة، ووصفت هذه الدراسة الخراب والدمار الذي خلفه هذا الوباء في أنحاء إنجلتر.

3- Phifer. M, Property, Power and Patriarchy: Women's Property Rights Decline in England after the Black Death, University of Houston, 2014.

اعتمد الباحث على هذه الدراسة في معرفة وضع المرأة الاقتصادي بعد الموت الأسود وكيف تغير وضعها القانوني حيث كانت حقوقها قوية بالفعل قبل الموت الأسود في القانون العام لانجلترا حتي وجد المجتمع الإنجليزي بعد الموت الأسود أنه من الأفضل الحد من حقوق المرأة وبالتالي تحرر الرجال من قيود المهر واكتسبوا مزيد من القوة والمرونة في التصرف في الأرض كيفما شاءوا .

- **أثر الموت الأسود على الحياة اليومية والدينية والطقوس والعادات الجنائزية**

عندما وصل الطاعون إلى لندن – عاصمة إنجلترا وأكبر مدنها وأهم موانيها في نهاية خريف عام ١٣٤٨م – عانت المدينة من ارتفاع كبير في أعداد الوفيات، فيروي (هنري نايتون Henry Knighton) رئيس دير (سانت ماري أوف ذا ميدو –St.Mary-of)

the-Meadowعن آثار الموت الأسود في إنجلترا فيقول: "انتشرت الجائحة على طول سواحل (Southampton ساوثهامتن) ثم انتهت إلى (Bristol بريستول) وسرعان ما هلك معظم أهلها، حين دهمهم الموت دون سابق إنذار، وما لبث أن انتشر ذلك الموت المخيف في كل الأنحاء متتبعًا مسار الشمس؛ ففي (ليسستر Leicester) مات أربعمائة من اتباع كنيسة (الصليب المقدسHoly Cross)*، وتبعهم سبعمائة في إبروشية (القديسة مارجريت St. Margaret) وكانت هذه هي الحال في كل إبروشية مرَّ عليها؛ لذا أصدر أسقف (لينكلن Lincoln) منشورًا ليُذاع في سائر أنحاء أسقفيته، يحوِّل فيه سلطاته كاملة لكهنة نظاميين وعلمانيين، ومن ضِمنها تلقّي الاعتراف ومنح الغفران للجميع عدا المَدِينِين، إلا إذا أدّى الواحد منهم ما عليه من دَيْن ما دام حيًّا أو أداه عنه آخرون حال وفاته، وعلى النحو ذاته منح البابا إبراءً عامًا عن الخطايا لكل الذين يتلقّون غفرانه عند موتهم، ووافق على أن يمتد ذلك الإبراء حتى عيد الفصح التالي، ويستطيع المرء أن يختار القس الذي يعترف له في أي وقت(١).

ولقد ذكر (جيفري الخباز *Geoffry the Baker) وصول الموت الأسود إلى (بريستول) في منتصف أغسطس، الأمر الذي يؤكد عليه (نايتون)(٢)، وكانت (بريستول) هي ثاني أكبر مدينة في إنجلترا، حيث كان عدد سكانها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألفًا، وعند وصول الموت الأسود لها هلك خمسون بالمائة من الكهنة ذوي المناصب، وثلاثون بالمائة من النبلاء أو النخبة، وإجمالي عدد من أهلكهم الطاعون في (بريستول) يتراوح بين خمسة وثلاثين بالمائة إلى أربعين بالمائة.

كان يغلب على إنجلترا الطابع الريفي، فكان المجتمع الإنجليزي مجتمعاً إقطاعياً من حيث كون تسعين بالمائة من سكانها يعيشون في تجمعات يضم الواحد منها ما يقترب من

(1) Knighton.H, Knighton's Chronicle 1337-1396 (Oxford Medieval Texts), 1996, p. 61.
(2) Knighton.H, Knighton's Chronicle 1337-1396, P.590.
* جيفري الخباز كان من سوينبروك في أكسفوردشير وتوفي تقريبا عام ١٣٦٠، وكان معروف باسم (والتر) وهو مؤرخ إنجليزي كتب
Chronicon Angliae temporibus) والذي يتناول تاريخ إنجلترا من من عام ١٣٠٣ إلى ١٣٥٦.
Edwardi II et Edwardi III)
See: Hugh.c, "Geoffrey the Baker". Encyclopædia Britannica. Vol. 11, Cambridge University Press. p. 617

الألف، وكان عدد سكان (كورنوولCornwall) في عام ١٣٤٨م مرتفعاً[١] حتى وصل الموت الأسود إليها في أواخر الشتاء من عام ١٣٤٩م بعد أن مرَّ بـ (بريستول وإكستر Exeter وبلايموثPlymouth)، وترك لنا أسقف (إكستر) – والتي كانت (كورنوول) تدخل في نطاق سلطته – سجلات ذكر فيها أخبار عن تنصيب قساوسة جدد، ويُستنتَج منها أنه فيما بين سنتي ١٣٣٩ م و ١٣٤٩م كان متوسط من كان يتم تنصيبهم (أربعة) في كل عام ذلك على عكس ما جرى بين مارس ١٣٤٩ م ومارس ١٣٥٠م؛ فقد تم تنصيب (٨٥ قساً) أي ما يزيد على عشرين ضعفًا من الأعوام السابقة بسبب ازدياد نسبة الموتى من رجال الدين، وتُبيِّن سجلات (ريللاتون Rillaton) أن (جون دي ريل John de Rillوهو مندوب للدولة مات من الطاعون في ١٢من مارس ١٣٤٩م ، كما مات (وليم كارنك William Carnek) وهو محضر بقرية (هلستون إن كيريير–Helston–in Kirrier في ١١ أبريل من نفس العام، وأضعف الطاعون (لوكاس سيرل Lucas Cerle) مندوب الدولة بقرية (ليسكرد Liskeard) فتوقف عن أداء وظيفته في نهاية مارس. ويُستنتَج من هذا أن معظم رجال الإدارة في الريف البريطاني هلكوا بسبب الطاعون، وفي ضيعة (كوكسهام) تناقص العدد الكلي للسكان بمقدار الثلثين، وأصبحت القوائم الخاصة بضريبة الرأس تضم في عام ١٣٧٧ م أسماء (٣٨) فقط ممن هم فوق الرابعة عشرة من عمرهم بعد أن كانوا مائة في عام ١٣٤٨م[٢].

وفي ضيعة (Hlswin هلسوين) كانت نسبة الوفيات بين المستأجرين الذكور تقدر في نهاية ١٣٤٩م بمقدار ٤٦ بالمائة، وهي نسبة تتوافق مع ما وصل إلينا من قرى إنجليزية أخرى، ففي (الفتشيرش Alvechurch) في (ورستر شاير Worcestershire) التي تقع في (الوست ميدلاندز) كانت النسبة ٤٤ بالمائة، أما في ضيعة (ردجريف Redgrave) في (سفولك Suffolk) بشرق إنجلترا فارتفعت نسبة الوفيات عن ٥٠٪.

ووصل من إنجلترا سجلات كنسية عن الطاعون ذات قيمة عالية، فقد أرسل أسقف

(1) Boucher. C. E, the Black Death in Bristol, Transactions of the Bristol and Gloucestershire Archaeological Society, Vol.60 (1938),p. 16

(2)Hatcher.J, Rural Economy and Society in the Duchy of Cornwall 1300–1500, Cambridge University Press, pp. 102-21

(باث Bath) و (ويلز Wells) في يناير ١٣٤٩م خطاب إلى القساوسة التابعين له يلخص ما آلت إليه الحال في أسقفيته فيقول: "كانت الجائحة الحاضرة في أيامنا قد انتشرت في أنحاء البلاد؛ حيث أصبحت الكثير من الكنائس الإبروشية بدون رعاة ولا قساوسة لخدمة رعاياهم، وكان الكثير منهم يموتون دون أن يقام لهم قداس الكفارة، ولم يتمكن الرجال وخاصة المرضى من الحصول على خدمات القس عند احتضارهم، وإقناعه أنه يمكن للواحد منهم أن يؤدي اعترافه لأي شخص آخر، وإذا لم يتوافر رجل فيمكن أن يقوم بهذا الدور امرأة ، وارتفعت نسبة الوفيات بين رجال الدين والعامة في إنجلترا(١). ومات ٤٣ بالمائة من رجال الدين في أكسفورد Oxford، كما مات ٤٠ بالمائة منهم في (بيسستر Beicester) التي تقع على بُعد ١٣ ميلًا إلى شمال شرق أكسفورد، ومات ٦٦ بالمائة في (وايكومب Wycombe) من أعمال باكنجهام شاير (Buckingham celebrities).

ولدينا كذلك أخبار عن طلاب جامعة (أكسفورد)، فعندما أتى الموت الأسود في بداية عام ١٣٤٩م هرب معظم الطلاب والعاملين وأغلقت الكليات والمدارس أبوابها، وأعد اثنان من الأساتذة هما (ريتشارد فيتزرالف Richard Fitzralph)* و (جون ويكليف John Wycliff)* كشوفات ضخمة عن آثار الطاعون وهي ذات أهمية كبيرة، ويُقدِّر (فيتزالف) أنه كان يوجد بالجامعة في عام ١٣٤٨م ثلاثون ألف طالب مسجلون أصبحوا ستة آلاف طالب فقط بعد سنتين، بينما يقدرهم (ويكليف) بستين ألفًا أصبحوا ثلاثة آلاف، ونلاحظ في هذين التقريرين مغالاة واضحة؛ فقد كان كل من لدى أكسفورد من طلاب يتراوح عددهم بين ألف وألف وخمسمائة، لكنه يستخرج منهما ما ترتب على الموت الأسود من

(1) Gasquet.F.A, The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death, Simpkin Marshall, Hamilton, Kent and Co. Limited. London, 1893, p. 96.

* ريتشارد فيتزرالف : المعروف أيضًا باسم فيتز رالف ولد عام ١٣٠٠ – وتوفى عام ١٣٦٠ م، وهو فيلسوفًا وعالم لاهوت ورئيس أساقفة أيرلندي نورماندي لأرماج خلال القرن الرابع عشرو كان لفكره تأثير كبير على جون ويكليف.

See: Burns, J. H. The Cambridge History of Medieval Political Thought C.350-c.1450. Cambridge University Press. 1988. pp. 644–649

* جون ويكليف ١٣٢٨ –1384 كان فيلسوفاً ومصلحًا مسيحيًا، وكاهنًا كاثوليكيًا، وأستاذًا في اللاهوت بجامعة أكسفورد وكان له دور في ترجمة الكتاب المقدس من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية .

See: Levy .I.C, A Companion to John Wyclif. Late Medieval Theologian, Leiden: Brill, 2006, pp. 1–61

تأثير سيكولوجي ، ولدينا دراسة حديثة عن الموتى في كلية اللاهوت تقدر نسبتهم بأقل من عشرة بالمائة، وربما نفسر ذلك في ضوء أن كثيرًا من الأساتذة لاذوا بالفرار، وكانت نسبة الموتى بين طلاب اللاهوت على الرغم من الهرب تقترب من ثلاثين بالمائة، كما كانت نسبة الموتى بين أهل المدينة ذاتها تتراوح بين خمسة وثلاثين بالمائة إلى أربعين بالمائة، أما من هربوا فيمكننا القول بأن الكثيرين منهم انتهت بهم الحال إلى الموت في المدن والقرى التي فروا إليها. (١)

ونجد مجموعة من الإحصائيات في أسقفية (لنكلن) و (يورك)(٢) التي تسجل من هلك بها من رجال الدين خلال الموت الأسود؛ فقد بدأ الطاعون في (لنكلن) في فبراير ١٣٤٩م، ولم يلبث أن عصف في أبريل التالي بتسعة من مقرات الأسقفية العظمى بـ (هنتنجدون Huntigdon)، وهلك ٣٥ بالمائة من رجال الدين، أما في (يورك) مات ٤٠ بالمائة من كهنتها، وربما ساعد على ذلك مناخها البارد. وبما أن الكهنة هم النخبة المتعلمة بين الشعب، بالتالي فإن نسبة الوفيات العالية بين الكهنة تجعلنا نستنتج أنها مرتفعة أيضاً بين العامة، وربما كانت تفوقهم.

كانت (ونشسنتر) في جنوب إنجلترا تضم بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف من السكان(٣)، وكانت من أغنى مدن المملكة، ولكن الموت الأسود جعل مدفن كنيستها ممتلئ بالموتى؛ مما أدى إلى إضافة مدفن آخر ولكن بعد وقت قصير اتضح أنه لم يعد كافٍ لاستيعاب المزيد، ولم يلبث أن سيطر الرعب على الأسقف، خاصة بعد قيام أهل المدينة بدفن موتاهم في حفر خارج أسوارها، وسرعان ما تناقصت أعداد سكانها إلى مستوى يقل عن نصف ما كان عليه قبل الطاعون؛ حتى أنه تحول جزء من (الهاي ستريت High Street) وهو أهم شارع تجارى بالمدينة إلى مدفن، وهكذا خلف الموت

(1) Courtenay. W.J, The Effect of the Black Death on English Higher Education, Vol. 55, No. 4 .1980, pp. 696-714

(2) Thompson.H, The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York, Archaeological Journal

Volume 71, Issue 1, 1914,pp. 97-154

See: Thompson.A, Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the years 1347-1350, Archaeological journal, Vol 68, 1911. pp. 300-360

(3) Coulton. G. G, The black death, London: Ernest Benn, 1929. p. 496

الأسود في (ونشستر) ذكريات لا تُمحى، فتوضح سجلات الخاصة بجباية (ضريبة الرأس) عام ١٣٧٧م أن سكان (ونشستر) قد انحدر عددهم إلى أقل من ثلاثة آلاف. وفي (فاردهام هندردز Vardham Henders) خلال عام ١٣٤٨م مات من بين (٧٤٠) من العائلات الكبيرة (١٨٥)عائلة ؛ أي حوالي ربعهم ولحق بهم في نهاية العام (١٠١) آخرون؛ لترتفع نسبة الوفيات إلى ٣٩ %.

وفي العاصمة (لندن) التي وصل لها الطاعون في أواخر سبتمبر ١٣٤٨ م وخلال شهرين[١] من فبراير إلى أبريل تم دفن ألفين من السكان في مقبرة واحدة، لكن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد، حيث ورد في سجلات المدنية أنه ما بين يونيو إلى سبتمبر كان متوسط الوفيات (٢٩٠) يوميًا، وبين (٧) مناصب كنسية كبيرة أصبح ثلاثة منها فارغة؛ فقد مات (جون ستراتفورد Stratford John) رئيس أساقفة (كانتربري) في مايو ١٣٤٨م، ولم يلبث أن لحق به خليفته (جون أوفورد John Offord) بعد عام، وذلك قبل أن يتقلد مهام منصبه، ثم مات من تلاه وهو (توماس برادواردين Thomas Bradwardine) وهو أحد مشاهير (أكسفورد) في أغسطس، وأصبح عدد الوفيات يتراوح بين ٣٥ % إلى ٤٠٪. وذكر المعاصرون للموت الأسود أنه أهلك بين مايو وسبتمبر عام ١٣٤٩م ما يقدر بثلث سكان إيست إنجليا (East Anglia) حيث وصلت خسائر ثلاث قرى في هذا الإقليم من ٥٣ و ٥٧ % إلى ٧٠ %[٢].

وحلَّ خراب هائل بكامبردج (Cambridge) بين أبريل وأغسطس، حيث مات ١٥ طالباً من بين ٤٠ طالباً مقيماً بها، وفي نورويتش (Norwich) التي كان عدد سكانها في ١٣٤٨م بين ١٠ إلى ١٢ ألفا، بعد أن أصيبت بالموت الأسود في يناير ١٣٤٨م، هلك نصف كهنتها وعلمانيها تقريباً[٣]، وتوقفت أربع من كنائسها الإبروشية عن أداء مهامها، ولم يعد يوجد بها عدد كافٍ من القساوسة لإقامة القداسات، أو من الجمهور ليحضر

(1) Thrupp, S. L., the Merchant Class of Medieval London, 1300-1500, University of Michigan Press, 1989. pp. 41-52

(2) Gottfried.R, Epidemic Disease in Fifteenth Century England: The Medical Response and the Demographic Consequences, Leicester University Press, 1978, pp. 142-150.

(3) Green. B& Young.R, Norwich the Growth of A City, Norwich Castle Museum, 1968. pp. 16-18.

وينصت بخشوع إليهم. (١)

وكان النقص شديدًا في أعداد الكهنة، حتى أنه حين حاول أسقفها أن يضع حداً لهذا فأسس (الترينتي هول Trinity Hall) في جامعة (كامبردج) لأعداد المزيد من الكهنة(٢)، وفي بيري سانت إدموندز (Bury St Edmunds) والتي كان عدد سكانها ٧ آلاف، وتعد من أكثر المدن ازدهاراً وصاحبة اقتصاد تجاري وصناعي متنوع، ويتضح من سجلات ديرها – والذي يعد من أغنى اديرة أوروبا – ما خلفه الطاعون من خراب بعد أن وصل إليها. (٣)

ففي ١٩ من يناير ١٣٥١م صدر إذن من البابا (كليمنت السادس) لمقدم ديرها وهو (وليم أوف برنهام William of Bernham) برسامة عشرة من الرهبان ممن هم دون سن الـ ٢٥ ليصبحوا قساوسة؛ ذلك لأن نسبة الوفيات العالية التي تبعت الموت الأسود أدت إلى نقص حاد في أعداد الرهبان، فيتبين من السجل أن أربعين راهبًا – أي ما يعادل نصف العدد الإجمالي للرهبان – قد أهلكهم الطاعون. ويستدل من ضريبة الرأس عام ١٣٧٧م على أن إجمالي عدد السكان كان قرابة أربعة آلاف ومائتين، بمعنى أنهم تناقصوا بمقدار أربعين بالمائة، أما فيما يختص بالقرى المحيطة بالدير والتي كانت تعتمد في معاشها على أسواق (بيري) وصل عدد الضحايا إلى٦٠٪ ، وهناك عاملان رئيسيان ساعدوا على زيادة أعداد الوفيات، هما: أولاً دخول الوباء للإقليم من نقاط متعددة؛ مما أتاح فرصة انتشاره بشكل أوسع. وثانياً المناخ البارد والرطب الذي كان بيئة خصبة للمشكلات الرئوية، والتي يمكن أن تتطور لتصبح طاعوناً رئوياً مميتاً، ووصلت نسبة الوفيات لنسبة عالية في (ليسستر) و (Leicestershire ليسستر شاير)، فكانت النسبة عند الكهنة في (نيوآرك Newark) ٤٨٪، (نوتنجها مشاير Nottinghamshire)

(1)Gasquet.F.A, The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death, 1893, pp. 194–219

(2)Crawley. C. W, Trinity Hall, the History of a Cambridge College 1350–1975, The Historical Journal , Volume 21 , Issue 3 , September 1978 , pp. 751 - 752,

(3)Gottfried.R, Bury St. Edmunds and the Urban Crisis: 1290-1539, Princeton University Press. 1982. pp.46-72.

٥٧٪، وفي (ستاو Staw) و (لنكلنشاير Lincolnshire) ٥٦٪ ، في (لنكلن) ٥٨٪ [١].

وكانت (رثين Ruthin) واحدة من الأماكن القليلة في (ويلز) التي كشفت لنا ملفات محاكمها أن الحياة كانت تسير خلال أبريل ومايو ١٣٤٩م في مسارها الطبيعي، ولا توجد أية سجلات عن وجود موتى، حتى بداية الأسبوع الثاني من يوليو مات ٧ أشخاص، وفي نهاية الشهر كان ٧٧ على الأقل أي أكثر من ثلث عدد السكان في (ويلز) قد هلكوا. أما في (أيرلاندا) كانت الأوضاع أسوأ؛ ففي صيف ١٣٤٩م هلك كبير أساقفة (دبلنDublin)، وهو الشخصية الرئيسة في (أيرلاندا) كلها، وليس في إمكاننا تقدير العدد الإجمالي للموتى بسبب ما يشوب المصادر الأيرلندية من بعثرة، ومع ذلك تكوَّن لدينا انطباع خلَّفه لنا الراهب الفرانسسكاني (جون كلين أوف كيلكني John Clyn of Kilkenny) عن الفظائع التي صنعها الموت الأسود في البلاد فيقول: "أبدو كما لو كنت من الأموات، أنتظر أن يأتيني الموت، فأسجل بصدق ما وصل إلى أذني وتحققت منه، وحيث إنه ربما لا تموت الكتابة بموت الكاتب، ولا العمل بموت العامل أضيف بدوري جلدًا من ورق، ربما يقدر له البقاء، وإذا تصادف أن عاش أحدهم بعد تلك الجائحة أو نجا أحد أبناء آدم؛ فربما واصل كتابة هذا العمل الذي بدأته، وهنا يبدو أن المؤلف قد مات".[٢]

استطاع الطاعون أن يدمر الأُسر، ويقضي على أعضائها، ويشوِّه بُناها ويلغي وظائفها؛ حيث تغيرت الطقوس والعادات التي كانت تتبعها الأسر عند وفاة أحد أفرادها كالجنازة والموائد الجنائزية. فمع انتشار الطاعون تغيرت الأمور بشكل تدريجي حتى سقطت هذه المظاهر الطقوسية ولم يتبقَّ منها إلا عمل ناقل الجثث، وتطورت الأسر لتصبح اصغر عدداً ، بعد أن كانت تضم الأبناء والأبناء بالتبني وأبناء الأخوة وأبناء الأخوة اليتامى، أو الأحفاد، أو المتدربين على المهنة أو الخدم أو العبيد؛ حيث كانت الأسر الغنية التي لديها المكان والموارد تميل إلى أن تكون أكبر من الأسر الفقيرة، لكن كان على أسر الفلاحين أيضاً أن تؤوي أعضاء العائلة المترملين أو اليتامى، وغير

(1) Thompson.A, Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the years 1347-1350, Archaeological journal, Vol 68, 1911,pp. 300-360

(2) Clyn.F.J, Annalium Hiberniae Chronicon, (Dublin: Irish Archeological Society, 1849), p. 37

القادرين على العمل لتقدم السن أو تدهور الوضع الصحي، والمسافرين والمشردين واللاجئين ،[١] وعندما يهدد الطاعون أسرة أو يهاجمها، فإنه يصيب عدد كبير من أفرادها، ونجد أن المجتمع الإنجليزي قد فرض نظاماً على الأسرة من الأنشطة والمسؤوليات فكانت النساء من مهامهن ان يرعين المريض والمحتضر، ويعددن المتوفى للدفن ،بينما قام الرجال بالاعمال التي تتعلق بالعالم الخارجي بعيداً عن المنزل [٢]

وأثناء العصور الوسطى كان هناك ارتفاع في الوفيات بين الأطفال؛ فأمراض الطفولة والأوبئة والحوادث وسوء التغذية والمياه الرديئة وقتل الأطفال عمداً فعلت فعلها، ومن الصعب على وجه الخصوص الحصول على بيانات عن وفيات الأطفال الناتجة عن الطاعون. غير أن النماذج الحديثة للطاعون الدبلي والأدلة القصصية في مصادر القرون الوسطى اللاحقة تدفع المرء إلى توقع ارتفاع الوفيات بين الرضع والأطفال، [٣]

وكانت الأسرة تعمل داخل نسيج مجتمعي تحصل منه على كثير من المعلومات وتؤدي واجباتها وفقاً لقواعده، وربما يؤثر الأقارب وزملاء النقابة والأصدقاء والأطباء والكنيسة والنظام القانوني التقليدي والسلطات المدنية أو القروية أو الإقطاعية في تعليم الأسرة عن كيفية التعامل مع الطاعون ورد الفعل تجاهه.[٤]

وكان للتقاليد العائلية والمكانة الاجتماعية والموارد الاقتصادية والخبرات الشخصية دورها أيضاً، فقد تستخدم عائلة غنية النقود وشبكة أصدقائها في المدن الأخرى للهرب، تاركة كل شيء وراءها، وربما تختار أخرى لديها الموارد نفسها البقاء لحماية أصولها، وربما تقوم ثالثة ببقاء رأس العائلة في البلدة وينتقل من يعيلهم إلى مكان آخر لحمايته. وفي حال الهرب كان يتم ترك خدم العائلة والمتمهنون ومن هم عالة عليها ليتدبروا أمورهم بأنفسهم، وأحياناً كان الخدم الموثوق بهم يُتركون للعناية بالمنزل والأصول الأخرى. ويقال أن في زمن الطاعون كانت مدينة (لندن) قد أصبحت مدينة للخدم، وغالباً كان الخدم وغيرهم من

(١)جوزيف بيرن ، الموت الأسود ، ص ١٠٦

(2) Zuber.C. K, Plague and Family Life, In (Jones.M, The New Cambridge Medieval History), ambridge University Press: 2008, pp. 124 – 154.

(3) Giladi.A, Mortality enfand and child, journal of the economic and social history of the orient Vol 32, 1989, PP. 121 – 152

انظر : جوزيف بيرن ، الموت الأسود ، ص١٠٩

(4) Zuber.C. K, Plague and Family Life, 2008, pp. 124 – 154.

الذين يتصلون بالعالم الخارجي من دون رقابة تمنحهم الأسر غرفاً في المنزل بعيدة عن غرفهم. حيث كان الخدم هم أول من يمرض في العائلات الكبيرة. وربما تقدم الرعاية لأفراد الأسرة المصابين ولكن الخدم ومن يماثلهم يُرسَلون إلى مبنى خارجي أو إلى مقر ريفي ولا يحصلون على رعاية حتى وإن كانت متدنية. وكان الزوج الذي يبعد عن أسرته يعيش في خوف دائم من ألا يراها ثانيةً، ولا شك في أن أسرته كانت تخشى الأمر نفسه؛ ولأن السلطات في أماكن عديدة في (لندن) كانت تحتجز عائلات بأكملها في منازلها عندما يمرض أحد أفرادها بالطاعون، هذا ما دفع الأسر الى إخفاء خبر المصابين لديها بالطاعون عن السلطات. (١)

لقد انتشر الموت عادة داخل الأسر بين جميع الفئات العمرية، فكانت الأمهات والوليدون تتوفى غالباً اثناء الولادة ،وكان يفقد كثير من الأطفال بسبب الحوادث والامراض ، وسقط كثير من البالغون ضحايا العنف بسبب شرب الكحول والفقر، وكان يموت المسنون عادة في فراشهم، ولقد اكتسحت الحرب والمجاعة والمرض البلدات والقرى وتقتل من دون تمييز، لذا كانت العظات الكنسية والفن الديني تردّد رسالة تفيد بأن الحياة ما هي إلا ممر أو مقدمة للموت. وكانت الأسر تقف في أغلب الوقت عاجزة أمام معاناة بعض أفرادها من الحمى والهذيان، والمشاكل المعدية المعوية، والأطراف المكسورة، والتسمم، والجدري، والأمراض الزهرية، ومشاكل الحمل، والأمراض المزمنة، ونادراً ما كان الأطباء والجراحون والصيادلة يجدون علاجاً، حتى في تسكين الألم. وكان لكل أبرشية مقبرة يمر بها جميع المنتمين للأبرشية كل يوم أحد حيث كان الموت في الغالب أمرا معتاداً حتى في الأسر الثرية وفي كل الطبقات بلا استثناء. (٢)

وفي الطقوس الأخيرة قبل الوفاة كان يأتي لمنزل الأسرة الموثق الذي يسجل الشهادات الأخيرة والوصايا الخاصة بالنساء والرجال، وينظم الإجراءات القانونية للتعامل مع أملاك المتوفى ومن يعيلهم قبل الوفاة، ويأتي أيضاً رجل الدين الزائر ويقضي ساعات مع

(١)جوزيف بيرن ، الموت الأسود ، ص ١١٠-١١٢

(2) Holt. J, Presidential Address: Feudal Society and the Family in Early Medieval England: IV. The Heiress and the Alien," Cambridge University Press: 12 February 2009, PP. 1-28.

المحتضر، ويقدم المواساة الروحانية للعائلة بأكملها، ويكون في الغالب كاهن أبرشية العائلة، أو قس مفضل يمثل الكنيسة، ويظهر رسمياً مرتدياً ما يدل على منصبه الديني، ويحمل الماء المقدّس ووعاءً صغيراً مبطناً بالذهب يحفظ فيه القربان المقدس، ويرافقه رجل دين يحمل شمعة وجرساً يدوياً وكتاب نصوص الطقوس، ويرش الماء المقدس حول غرفة المريض باعتبارها وقاية روحانية، ثم يقوم بسؤال المريض عن وصيته وهو يحتضر، ثم يقدم له الصليب ليقبله، ويمسح الكاهن المحتضر بزيت زيتون خاص، وإذا كان المحتضر واعياً يقدم الاعتراف الأخير ويحصل على الغفران من الكاهن، وبعد إعداد المريض للمناولة، يقدّم الكاهن القربان المقدس وإذا كان الأمر ملائماً يبقى لأداء صلوات معروفة للروح التي ستفارق الحياة عما قريب، ويطلب رحمة الرب للمذنب ويسأل القديسين أن يصلوا لصالحه، ويقرع الجرس لحظة الوفاة ليعلم الجميع بحدوثها، وكانت تعمل الفتيات الكبيرات والنساء في العائلة بمثابة ممرضات للمريض، فيعتنين بمختلف احتياجاته. وكان إعداد المتوفى للدفن من مسؤوليات المرأة؛ حيث تقوم نساء الأسرة بنزع الثياب عن المتوفى وغسله ومحاولة وضعه في موضع ملائم قبل تيبس الجثة، وكن يحلقن لحى الرجال ويقلّمن أظافر كلا الجنسين، وربما يفركن الجسم بدهن عطري لموازنة الرائحة الكريهة للتعفن، وإذا جرت عادة عرض الجثمان في المنزل، فعلى النساء عندئذ أن يعددن الغرفة العامة، وكان الرجال يتعاملون مع ترتيبات الجنازة والدفن[١]،وفي أعقاب الموكب إلى المقبرة، تتشارك العائلة والأصدقاء المقربون الطعام والجعة أو الخمر على المائدة الجنائزية، وتكون أحياناً في الشارع أمام البيت [٢]

ولكن في أوقات الطاعون، منعت هذه الطقوس وصارت العائلات تقدم للمعزين نقوداً ينفقونها في الحانات المحلية أو باعتبارها تذكارات، وبعد وصول الطاعون للندن أصبح ربُّ الأسرة يركع مع أسرته في مكان ملائم من بيته، بعد أن يتعطر بالبخور أو العرعر أو إكليل الجبل أو ماء الورد والخل ويدعون بقلب خاشع بالنجاة والمغفرة والعون من الرب

(1) Platter, F, Beloved Son Felix: The Journal of Felix Platter a Medical Student in Montpellier in the Sixteenth Century, Frederick Muller, London, England, 1961, pp. 189 - 191

(٢)جوزيف بيرن ، الموت الأسود ، ص١٢٣

ويرد الخدم والأسرة على كل دعاء بآمين.[١] ويتبع هذه الأدعية بسلسلة من الصلوات، فمثل هذه الطقوس المنتظمة تساعد في المحافظة على الروابط التي تبقي على تماسك الأسر والمجتمعات، ولكن بعد الموت الأسود اختفت مثل هذه العظات والدعوات القصيرة وانتشر الموت والخوف، ورأى الجميع أن التوبة وتغيير نمط الحياة والابتعاد عن الخطايا ضروري لنيل رضا الرب والنجاة من الطاعون، وبما أن العالم كله خاضعٌ لمشيئة الرب، فالطاعون ناجمٌ عن إرادته؛ لذا استمر بعض الكاثوليك يعتمدون على الاحتفالات الدينية والصلاة والصوم والتوسل للقديسين، وتسيير المواكب والقيام بالأعمال الصالحة لتقليل من غضب الرب. وعلى الجانب الآخر لم يفعل من يؤمنون بالقدر أي شيء في بعض الأحيان لا الصلاة أو الهرب أو العلاج لأن كل شيء بين يدي الرب ومقدر بمشيئته التي لا تتغير[٢]

ولقد أثَّر الطاعون على عادات الجنائز؛ فكانت الأم في الغالب تكفن أبنها وتضعه في التابوت، أو يفعل الزوج الأمر نفسه لزوجته، حيث يرفض الجميع لمس جسد الميت، ولا تقام الصلاة أو ينفخ البوق أو يضرب الجرس ولا يحضر الأصدقاء والجيران إلى الجنازة، ولا يقام القداس. وكان يدفع النبلاء للفقراء والبؤساء لحمل الجثة للدفن، حيث لا يجرؤ أقارب المتوفى على حضور الجنازة خوفاً من أن يصيبهم المرض ويقام قداس قصير.[٣]

ولقد دونت السجلات التاريخية هذه التغيرات في العادات والطقوس للعديد من المدن، فنجد القوانين التي فرضتها حكومة المدينة في ما يتعلق بالجنازات، ففي البداية أمرت السلطات بدفن ضحايا الطاعون في تابوت أو صندوق فور وفاتهم في الليل أو النهار، بصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية. واقتصر قرع الأجراس والقداديس على أيام الآحاد، ويمنع القانون التجمعات بعد القداس في البيت أو الشارع لأن الوباء يمكن أن ينتشر عبرها، ومُنعت باقي العادات المألوفة الأخرى نتيجة لارتفاع الوفيات، وفرار الناس،

(1) Mullett.C. F, the Bubonic Plague and England, University of Kentucky Press, 1956, p. 82.

(2)Aberth.J, The Black Death ,The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents, Palgrave Macmillan New York, 30 April 2016,P.109-110

(3) Cohn, S. Plague violence and abandonment from the Black Death to the early modern period. Annales de démographie historique. (2017), PP.39–61.

وامتلاء المدافن. وبحلول سبتمبر قام مجلس المدينة بمنع ارتداء الأسود أو قرع الأجراس أو استخدام بساط الرحمة في قداديس الجنازات، ولم يعد يُسمح إلا لشخصين من العائلة بحضور القداس أو الدفن.(١)

وتوقف الناس – من تلقاء أنفسهم أو بضغط من السلطات – عن التجمع في المواكب والقداديس واقتصرت تجمعاتهم على الضروريات الأساسية لنقل الجثمان إلى الكنيسة والقبر، والصلاة لراحة نفس الميت. وكانت الخسائر في الأرواح هائلة، ولولا التوقف عن هذه الطقوس والمراسيم التقليدية لأصبحت المدن مدناً للموتى. على سبيل المثال، في سنة ١٣٤٨–١٣٤٩م انخفض عدد بائعي التوابل في (لندن) من ١٢ إلى ٣٥ عضواً بسبب الطاعون. وكما جرت العادة اجتمع الجميع في الجنازات الأربع الأولى لكنهم توقفوا عن ذلك في ما بعد بسبب ارتفاع عدد الوفيات. (٢)

لقد ترتب على هذا الارتقاع في نسبة الوفيات شراء العديد من الأبرشيات لمدافن إضافية مجاورة لباحة كنيستها، وفي يوليو وأغسطس ١٣٤٩م ، أضافت ١١ أبرشية في (يورك) بإنجلترا مزيداً من الأرض بعد تقديم التماس للأسقف للسماح لها بذلك. وكانت مقابر الطاعون على مثل المقابر الأخرى مُسَيَّجة ومباركة، وفي الأوقات العادية كانت مقابر للطبقات الدنيا، وظهرت مقابر جديدة حول المدن الكبيرة في زمن الطاعون، في المناطق الكاثوليكية المرتبطة بكنيسة أو أخوية دينية؛ ولأن هذه المقابر كانت خاصة لدفن ضحايا الطاعون – والتي اعتُبِرَت مفسدة للهواء – فإنها غالباً ما تقع خارج حدود المدن معزولة عن المساكن الأخرى.(٣)

واحتاجت (لندن) أماكن دفن إضافية في أثناء تفشي الطاعون؛ فقام (رالف ستراتفورد Ralph (Stratford أسقف لندن في سنة ١٣٤٨م بشراء قطعة أرض وجعلها منطقة محرمة وأحاطها بسور من الطوب وخصصها لدفن الموتى، وبنى عليها كنيسة صغيرة،

(1) Horrox,R. The Black Death (Manchester Medieval Sources), PP.23, 52-53.
(2)Rowell. G, The liturgy of Christian burial : an introductory survey of the historical development of Christian burial rites, London : S.P.C.K for the Alcuin Club, 1977,PP.80-82
(3)Hawkins.D ,The Black Death and the new London cemeteries of 1348, Antiquity , Vol 64 , Issue 244 , September 1990 , pp. 637 - 642

وقام السير (والتردي ماني Walter de Manmy) – وهو فارس فلمنكي – ببناء مقبرة وكانت هذه المقبرة هي (مستشفى القديسة مريم St. Mary Spital) ، تقع عند تقاطع طريق (سبيتال Spittal) خارج (الدرسغيت) في وست سميثفيلد (West Smithfield). (١)

وفي سنة ١٣٧١م، استوطن الرهبان الكارثوسيون Carthusians الكنيسة، وأنشأوا ديراً يدعى (Charterhouse تشارترهاوس)، وأخذوا يصلون للموتى، ويعتنون بالمقبرة الموجودة فيه، وفي سنة ١٣٤٨ م اشترى رجل الدين (جون كوري John Corey)قطعة أرض شرق(Smithfield سميثفيلد) قرب برج (لندن) وأحيطت هذه الأرض بجدار حجري وزُوِّدت بكنيسة صغيرة، وجعلها أسقف لندن مقبرة في سنة ١٣٤٩م، وأصبح الدفن الجماعي في حفر كبير منتشراً أثناء الموت الأسود؛ حيث وجد علماء الآثار في موقعي (سميثفيلد) الشرقي والغربي أن الجثث دُفنت بترتيب في خنادق طويلة، وكُدست بعمق خمس طبقات بعضها فوق بعض، تفصل بينها رواسب من التراب. ولم تُفَرِّق بين الغني والفقير، والمذنب والقديس، والمحبوب والمكروه، وكان عادة يتم جمع الموتى في عربات وعند امتلائها يتم إلقاء الجثث في الحفرة المفتوحة في مشهد مروع يتنافى مع الإنسانية.(٢)

ويقدم مؤلف كتاب تاريخ (روتشستر Chronicle of Rochester) في إنجلترا عام ١٣٤٩م وصفاً لما كان يحدث فيقول: "وا حسرتاه، أهلك الموت أعدادً كبيرةً من الجنسين، ولم يعد يوجد من يحمل جثث الموتى ودفنها، ولكن حمل الرجال والنساء صغارهم إلى الكنيسة على أكتافهم، وألقوا بهم في مقابر جماعية تفوح منها رائحة كريهة جداً تجعل من الصعب على أيٍّ كان عبور باحة الكنيسة". وكتب الإنجليزي (جورج ويذر George Weather) عن هول مشهد الحفرة في لندن قائلاً: "يا إلهي! يا له من مشهد، ويا لها من روائح قوية تتصاعد من بين الجثث الكريهة. توجد هنا وهناك كومة من الجماجم، تظهر جثة نصف مدفونة وخصلة من شعر امرأة، ووجه رجل ميت تكشَّف وأظهر مشهد مخيف".

(1) Latham,R & Matthews,W, The Diary of Samuel Pepys, vol. VII (Berkeley: University of California Press, 2000), pp.30-35.
See; Champion.J, London's Dreaded Visitation (Historical Geography Research Paper Series, 1995, p. 33
(2) Forrest. I, The Politics of Burial in Late Medieval Hereford, *The English Historical Review*, Vol 125, Issue 516, October 2010, PP .1110–1138.

(١)

ولقد وصفت الحوليات التاريخية حاملي الجثث أنهم أصحاب قوة غير طبيعية؛ حيث تم اختيارهم لأداء أشنع الأعمال كل يوم بكفاءة وبلا مشاعر، بل وبكل قسوة تثير غثيان عامة الناس وتملأهم رعباً. فكانوا يحركون بأيديهم الموتى والمتعفنين وهم يدخنون ويغنون ويضحكون مثل العتالين أو عُمال تفريغ السفن. وفي سنة ١٣٧٥م كلفتهم الحكومة بتنظيف الشوارع وحلاقة لِحى المتوفين وإلباسهم الثياب، ونقل الجثث من مكانها إلى المقبرة بسرعة وكفاءة، وكانت هذه مهمتهم الرئيسية. وأثناء هذه الفوضى سعى حاملوا الجثث إلى الحصول على المال؛ ففتشوا صناديق الموتى وأخذوا ما يريدون وتعاملوا مع الناس بقسوة؛ وبسبب خطورة عملهم واجهوا الموت في كل مكان.(٢)

كانت إقامة القداديس، وتقديم القربان المقدس، والصور والتماثيل، والمواكب الخاصة، وقيام الناس بالتوبة عن خطاياهم من ردود الفعل الدينية الأولى لمواجهة الموت الأسود بعد انتشاره؛ لتجنب غضب الرب، وكان في وسع الأساقفة منح إعفاءات، حيث صدر مرسوم شهير في العاشر من يناير عام ١٣٤٩، منح الأسقف رالف شروزبري من باث وويلز في إنجلترا غفرانًا غير مسبوق لأبناء رعيته للاعتراف أمام رجل عادي، حتى لو كانت امرأة، وفي زمن الطاعون ، لان "العديد من الناس، كانوا ، يموتون دون التوبة عن ذنوبهم ".(٣) وكان من يقوم بأعمال أو طقوس خيرية أو يتلو صلوات خاصة بنية دينية سليمة يُعفى من قضاء بعض الأيام في المعاناة بسبب الخطايا غير المعترف بها. وكان يبارك الأسقف عادة تربة المقبرة المسيحية، وكانت المقابر الجديدة سواء أكانت مستقلة أم ملحقة بكنيسة، أم مستشفى أو مؤسسة أخرى، تتطلب إذنه ومباركته، وقام البابا بمباركة نهر الرون كي يتم التخلص من الجثث فيه في الظروف الخاصة. (٤)

وكان رجال الدين وغالباً الإخوة الرهبان والراهبات، في الأوقات العادية وفي زمن

(1)Boccaccio.G, The Decameron, trans. by Mark Musa and Peter Bondanella , New American Library, 1982, p. 11

(2) Britnell.R,The Black Death in English towns, Urban History 1 October 1994,PP.195–210.

(3)Aberth.J, The Black Death ,The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents, P.109-110

(4) Horrox, Black Death, p. 26.

الطاعون، يزورون المرضى ويساعدون المحتاجين، ويخدمون في المستشفيات والمؤسسات الأخرى التي تهتم بالمرضى والمسافرين، وكان الرهبان بمثابة مستمعين لاعترافات الناس ومرشدين روحانيين لهم، وغالباً ما استدعوهم عند اقتراب الموت. ولقد وُضع رجال الدين في زمن الطاعون على خط النار مباشرة؛ حيث تعرضوا للعدوى من الطاعون سواء عن طريق البراغيث المنزلية أو بلغم الضحايا، وعلى نحو موثقي العقود والأطباء الذين يعملون على مقربة من الضحايا، نتوقع ارتفاع معدلات الوفيات في أوساط رجال الدين الذين يقومون بواجبهم. (١)

ويُعلق (وليام دوهار(William Dohar ، بعد دراسته لسجلات الأساقفة، فيقول: "إن أسقفية (هيرفورد) بإنجلترا كان بها ١٦٠ أو حوالي ١٢٠ وفاة بسبب الطاعون من بين ما يزيد عن ٣٠٠ خادم أبرشية فُقدوا في سنة ١٣٤٩م وتركوا وظائفهم فارغة وفي سنة واحدة. بين مارس ١٣٤٩م وفبراير ١٣٥٠م، توفى بسبب الطاعون ٩١ من ٢١٤، ومن بين المناصب الكنسية المأجورة التي يقوم ملك إنجلترا بملئها، والتي كان يبلغ عددها في المتوسط ١٠٠ وظيفة كل عام، زاد عددها في ١٣٤٨م إلى ١٥٩ وظيفة وفي سنة ١٣٤٩م وصلت إلى ٨٩٩. وفي (نوريتش) ارتفع الرقم من ٧٧ في المتوسط إلى ٨٠٠، ومن ٣٥ إلى ٣٧١ في (أكستر). وبلغ مجموع المناصب الكنسية المأجورة لدى الأسقف ٤١٣ منصباً، منها ٢١٠ أصبحت فارغة بسبب الطاعون. وقد لزم ٢٤٩ تعييناً لملئها بسبب وفاة العديد من المرشحين. (٢)

ولقد أرهقت هذه الأعداد موارد الأسقف النموذجي وإداريه؛ حيث فقد الأساقفة أنفسهم العديد من موظفيهم كما فقدوا أرواحهم أيضاً، فقد توفي ثلاثة من رؤساء أساقفة (كانتربري)، أهم أبرشيات إنجلترا، في خلال سنة أو أكثر قليلاً. فيذكر الكاتب (وليام دين William Dene)من أبرشية (روتشستر) الإنجليزية الصغيرة نسبياً أن أسقفه فقد أربعة كهنة، وخمسة نظار، وعشرة خدم منزليين وسبعة كتبة صغار، وستة حجاب، ولم يبق أحد

(1)Aberth.J, The Black Death ,The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents, P.109-110

(2)Dohar.w, The Black Death and Pastoral Leadership: The Diocese of Hereford in the Fourteenth Century, The Journal of Ecclesiastical History , Vol 47 , Issue 2 , 1996 , pp. 372 - 373

في أي مكتب لخدمته.(١)

❖ **ضحايا الموت الأسود والوفيات الجماعية**

ومن هنا نرى أن معدلات الوفيات للمصابين بالطاعون وصلت لنسبة عالية في إنجلترا؛ حيث إن السكان لم تكن لديهم مناعة ضده، فهو وباء جديد لم تعهده أوروبا بشكل عام، وتعرض المصابون بالطاعون لخطر الوفاة بسبب بعض العوامل المتعلقة بالعمر والجنس والتغذية وحالة المناعة؛ حيث كانت وفيات الطاعون انتقائية وغير عشوائية، فالنسبة الأكبر التي استهدفها الطاعون الأطفال الصغار جدًا، وكبار السن أصحاب الأجساد الضعيفة غير القادرة على مقاومته فوقعوا فريسة أمام شراسته غير المعهودة.(٢)

وتُقدم العديد من السجلات المكتوبة في وقت وباء القرن الرابع عشر الميلادي بعض التفاصيل حول الأنماط العمرية لوفيات الموت الأسود. على سبيل المثال، وصف المؤرخ (ماتيو فيلاني Matteo Villani)أن الموت الأسود لا يفرق بين أحد، واتفق معه المؤرخ (ميشيل دا بيازا Michele da Piazza) الذي كتب أن الموت الأسود "لا يفرق بين الجنس أو العمر، فهو يقتل الجميع على حد سواء"، وتشير هذه الكتابات إلى أن العمر لم يكن له أي تأثير في الوفاة أثناء الموت الأسود(٣). وهذا يتناقض مع حالات تفشي الطاعون اللاحقة في العصور الوسطى والتي استهدفت الأطفال وفقًا لما ذكره المؤرخون، ومع أن الإشارات إلى العمر الموجودة في سجلات الموت الأسود لا تقدم صورة كاملة عن الأنماط العمرية للوفيات أثناء الوباء، وأن المؤرخين يشيرون عمومًا إلى أن الموت الأسود أصاب جميع الفئات العمرية إلا أن هذا لا يدل بالضرورة إلى أن خطر الوفاة كان موحدًا في جميع الأعمار.

حاول العديد من الباحثين استنتاج النمط العمري لوفيات الموت الأسود من الأدلة

(1) Gasquet.F.A, The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death, 1893, p. 71–91.
(2) Milner, G.R.& Wood, J.W.& Boldsen, J.L. Paleodemography, Biological Anthropology of the Human Skeleton. Wiley-Liss, New York, 2008, pp. 561-600.
(3) Cohn, S.K. The Black Death Transformed: Disease and Culture in Early Renaissance Europe. Arnold, London. 2002. P.126

الوثائقية، فقام (راسل 1948 Russell) بعمل تقديرات للوفيات حسب العمر بين الأفراد أصحاب المكانة العالية في إنجلترا أثناء الموت الأسود وبناءً على معلومات من سجلات محاكم التفتيش بعد الوفاة، ولكن لسوء الحظ فإن العينات المأخوذة من هذه السجلات صغيرة جدًا بحيث لا توفر تقديرات مفيدة خاصة للأعمار التي تقل عن سن العشرين. على الرغم من محدودية البيانات المتاحة خلص راسل إلى أن العمر كان له تأثير على وفيات الموت الأسود، وقال إن الرجال الأكبر سنًا معرضون للوفاة بشكل خاص(١). بينما كان الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عشرة وخمسة عشر عامًا أقل عرضة للوفاة بسبب المرض مقارنة بالفئات العمرية الأخرى. (٢)

وباستخدام سجلات البلاط الملكي من قرية (هالسوين Halswin) الإنجليزية قام (رازي Razi) ١٩٨٠م بتقدير الأعمار عند الوفاة بين الفلاحين أثناء الوباء، ثم قام بتقدير معدلات الوفيات الخاصة بالعمر للذكور فوق سن ٢٠ عامًا أثناء الموت الأسود ووجد، على غرار راسل (١٩٤٨)، أن معدلات الوفيات بالنسبة للذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٥٩ عامًا، زادت مع تقدم العمر . وأشار الرازي أن ملاحظاته غير دقيقة نظراً لصغر حجم العينات المتاحة. بالإضافة إلى ذلك، قام بتقدير العمر عند الوفاة بناءً على الفترة الفاصلة بين المثول الأول للشخص في سجلات محكمة (مانورال) وتاريخ وفاته المسجل، على افتراض أن متوسط عمر المثول الأول أمام المحكمة كان ٢٠ عامًا(٣).

هناك جدل حول ما إذا كان هذا الافتراض صحيحًا بشكل عام، لا توفر السجلات التاريخية الموجودة فهمًا كاملاً للأنماط العمرية لوفيات الموت الأسود؛ لأنها لا توفر تقديرات عمرية جيدة جدًا، وتوفر بشكل عام معلومات قليلة عن النساء والأطفال، علاوة

(1) Russell, J.C., British Medieval Population. University of NewMexico, Albuquerque.1948, p. 21

(2)DeWitte,S, Age Patterns of Mortality During the Black Death in London, A.D. 1349–1350, Journal of Archaeological Science, Vol 37 (2010),P. 3395-3398.

(3) Razi, Z. Life, Marriage, and Death in a Medieval Parish: Economy, Society, and Demography in Halesowen, 1270e1400. Cambridge University Press, Cambridge. 1980.pp130-133

على ذلك، فإن تقديرات العمر بناءً على الأدلة الوثائقية قد لا تكون دقيقة للغاية.

يمكن لعينات الهيكل العظمي للأفراد الذين ماتوا أثناء الموت الأسود أن توفر بيانات عن الأنماط العمرية للوفيات، فعند دراسة عينة من مقبرة (East Smithfield إيست سميثفيلد) في لندن، وهي مقبرة وبائية تم إنشاؤها واستخدامها فقط أثناء تفشي الوباء في لندن عام ١٣٤٩و١٣٥٠م، وتحتوي المقبرة على أفراد من جميع الأعمار ومن كلا الجنسين، وبالتالي توفر عينة مثالية لفحص أنماط الوفيات المرتبطة بالوباء(١). تم استخدام (إيست سميثفيلد) في التحقيقات السابقة حول وفيات الموت الأسود، ولقد قارن (والدرون Andron) ٢٠٠١م شرق (سميثفيلد) بمقبرة (سانت ماري غريس العادية) – أي غير الوبائية – في لندن (حوالي ١٣٥٠ –١٥٣٨). ولقد استخدم الأساليب التقليدية لتقدير العمر، وقارن عينات المقبرة بتوزيع عمر المعيشة من نموذج جدول الحياة، الذي يعتقد أنه يمثل سكان الحضر في العصور الوسطى. لم يجد (والدرون) أية اختلافات منهجية بين توزيعات العمر عند الوفاة في المقبرتين، لكن كلتهما تختلف عن نموذج التوزيع العمري للعيش؛ مما يشير إلى أن الموت الأسود لم يكن قاتلًا عشوائيًا.(٢)

باستخدام بيانات (والدرون) في (إيست سميثفيلد)، قارن (مارجريسون وكنوسيل Margerison and Knossel (2002) عينة من (إيست سميثفيلد) بعينة وفيات طبيعية من مقبرة (سانت هيلين أون ذا وولز St Helens–on–the–Walls) من (يورك)، وتمت مقارنة توزيعات الوفيات بين الأعمار من كلتا المقبرتين بنموذج لوفيات جدول الحياة، وكان ملف وفيات (إيست سميثفيلد) مختلفًا بشكل كبير عن (سانت هيلين أون ذا وولز)، ويشير التوزيع النموذجي للعمر عند الوفاة، وبشكل عام إلى أن الموت الأسود يقتل دون تمييز.(٣)

(1) Grainger, I., Hawkins, D., Cowal, L., Mikulski, R. The Black Death Cemetery, East Smithfield, London. In: Museum of London Archeology Service Monograph, vol. 43. 2008,p.63

(2) Waldron, H.A. Are plague pits of particular use to palaeoepidemiologists? International Journal of Epidemiology Vol 30, Issue 1, 2001, PP.104-108.

(3) Margerison, B.J., Knüsel, C.J., Paleodemographic comparison of a catastrophic and an attritional death assemblage. American Journal of Physical Anthropology, Vol 119 (2), 2002, PP.134-143..

وبالمثل، وجد الباحثون في مركز متحف لندن للآثار البيولوجية أن توزيع العمر عند الوفاة في (إيست سميثفيلد) يشبه الهيكل العمري للسكان الأحياء وليس عينة نموذجية للوفيات غير الوبائية . قام (جولاند وتشامبرلين Gulland and Chamberlain) (٢٠٠٥) بمقارنة (إيست سميثفيلد) بعينة وفيات طبيعية من مقبرة (بلاكجيت Blackgate) في (Newcastle نيوكاسل)، على عكس والدرون ومارجريسون وكنوسيل. كان توزيع (بلاكجيت) للعمر عند الوفاة مشابهًا لملف الوفيات الطبيعي من جدول الحياة النموذجي(١)، في حين كان توزيع (إيست سميثفيلد) يشبه التوزيع العمري للسكان الأحياء؛ مما يشير إلى أن مخاطر الوفيات كانت متشابهة لجميع الفئات العمرية أثناء الموت الأسود(٢).

وتعد مقبرة (إيست سميثفيلد) في لندن واحدة من مقابر الموت الأسود القليلة في أوروبا التي تم التنقيب فيها، وتم تسجيل غرض وموقع وحجم مقبرة (إيست سميثفيلد) في السجلات المعاصرة، وهناك أيضًا أدلة أثرية ترجعها إلى زمن الموت الأسود. تم إنشاء مقبرة (إيست سميثفيلد) لندن قبل أن يضرب الوباء لندن مباشرة عام ١٣٤٩، ولا يوجد دليل على أنها استخدمت للدفن بعد الوباء ولكن معظمهم، إن لم يكن جميعهم، ضحايا للوباء(٣).

من الواضح أن العمر كان له تأثير على خطر الوفاة أثناء الوباء، حيث كان الخطر بالنسبة لكبار السن أعلى من خطر الموت الأسود لدى الأفراد الأصغر سنًا، زيادة معدل وفيات الشيخوخة مع تقدم العمر؛ فخطر الوفاة بالنسبة لكبار السن كان أقل أثناء الموت الأسود عما كان عليه خلال أوقات الوفيات الطبيعية. من الممكن أن يكون هناك انخفاض في خطر الوفاة بين كبار السن في (إيست سميثفيلد) إذ استهدف الموت الأسود الأطفال

(١) جدول الحياة : هو جدول يُلخص فرص البقاء على قيد الحياة حسب السن أو المرحلة لأفراد مجموعة من سكان، بناءً على معدلات المواليد والوفيات

(2) Gowland, R.L., Chamberlain, A.T. Detecting plague: palaeodemographic characterisation of a catastrophic death assemblage. Antiquity 79 (303), 2005, pp.146-157.

(3) Grainger, I., Hawkins, D., Cowal, L., Mikulski, R. The Black Death Cemetery, East Smithfield, London. In: Museum of London Archeology Service Monograph, vol. 43. 2008. p.63

والبالغين الأصغر سنًا، ومع ذلك، إذا كان هذا هو الحال، فمن المتوقع أن نرى خطرًا أعلى للوفاة بين البالغين الأصغر سنًا خلال الموت الأسود مقارنة بالوفيات الطبيعية لجميع الأسباب الأخرى في العصور الوسطى.

وبدلاً من ذلك، قد يكون انخفاض خطر الوفيات بين كبار السن في (إيست سميثفيلد) نتيجة لكون الوباء أقل انتقائية ضد الأفراد الضعفاء – وعلى العكس من ذلك، أكثر فتكًا للأشخاص الأصحاء نسبيًا– من الوفيات الطبيعية في العصور الوسطى؛ أي أنه إذا كان الموت الأسود مميتًا لدرجة أنه قتل عددًا من الأفراد الأصحاء أكثر من الوفيات الطبيعية، فإن الفرق في الخطر بين البالغين الأصغر سنًا وكبار السن في (إيست سميثفيلد) قد يكون أقل من الذي لوحظ في مقبرة الوفيات العادية. ولكن الأكيد أن مخاطر الوفاة بالطاعون كانت تزيد مع عمر البالغين في (إيست سميثفيلد).[١]

الموت الأسود لم يقتل بشكل عشوائي؛ حيث تقدم تقديرات نموذج (جومبرتز Gompertz Models)*[٢] دليلاً على أن الموت الأسود استهدف الأفراد الأكبر سناً، وبالتالي فإن الموت الأسود لم يؤثر على جميع الفئات العمرية بالتساوي، وهو استنتاج يتوافق مع نتائج (والدرون)؛ حيث يتعلق بالعوامل البيولوجية وبالحالة الصحية الموجودة مسبقًا؛ أي ما إذا كان الأفراد الذين كانوا بالفعل في حالة صحية سيئة قبل وصول الوباء إلى لندن واجهوا مخاطر مرتفعة للوفاة مقارنة بأشخاص كانوا يتمتعون بصحة جيدة نسبيًا قبل الوباء[٣].

أشارت نتائج هذا التحليل إلى أن التعرض للإجهاد الفسيولوجي نتيجة نوبات العدوى والأمراض السابقة والمجاعات وسوء التغذية قبل الموت الأسود تؤدي منطقياً لارتفاع نسبة مواجهتهم لخطر الوفاة أثناء الوباء؛ لأن أجهزتهم المناعية كانت أضعف بسبب

(1)DeWitte,S, Age Patterns of Mortality During the Black Death in London, A.D. 1349–1350, Journal of Archaeological Science, Vol 37 (2010),P. 3395-3398.

(2) Gage, T.B. Mathematical hazard models of mortality: an alternative to model life tables. American Journal of Physical Anthropology 1988, Vol.76 (4), pp 429-441.

نموذج جومبيرتز أو دالة جومبيرتز: هو نوع من النماذج الرياضية للسلاسل الزمنية، سُمي على اسم بنيامين جومبيرتز (١٧٧٩-١٨٦٥-) ويعتبر دالة سيجمية تصف النمو بأنه الأبطأ في بداية ونهاية فترة زمنية معينة

(3) DeWitte, S.N.& Wood, J.W. Selectivity of the Black Death with respect to preexisting health. Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America Vol, 105 (5) 2008,PP. 1436-1441

تعرضها سابقاً لهذه الضغوطات الفسيولوجية، وأن الجنس لدى البالغين لا يؤثر على زيادة مخاطر الوفاة أثناء الموت الأسود، كما هو شائع في الأمراض المعدية الحديثة [١]. فأثناء الموت الأسود وفي ظل ظروف الوفيات الطبيعية في العصور الوسطى واجه الرجال والنساء مخاطر مماثلة للوفاة، وهكذا نرى بوضوح كيف كان الطاعون هو أحد أكثر الأمراض تدميراً في تاريخ البشرية، والذي قتل ملايين الأشخاص في فترة زمنية قصيرة جدًا، وكان الموت الأسود يتصرف بطرق مماثلة للأسباب الطبيعية للوفيات، فلم يكن قاتلًا عشوائيًا فكبار السن واجهوا مخاطر أعلى للوفاة أثناء الموت الأسود مقارنة بالأفراد الأصغر سنا؛ حيث أثَّر الوباء بشكل غير متناسب على أفراد معينين؛ أي أولئك الذين كانوا بالفعل في حالة صحية سيئة نسبيًا.

❖ **تأثير الموت الأسود على مكانة المرأة وحقوقها**

أثَّر الطاعون على كثير من الأوضاع الاجتماعية في إنجلترا، فكان له بالغ الأثر على مكانة المرأة. أدى رد الفعل الحكومي والاجتماعي بعد الموت الأسود إلى إضعاف حقوق ملكية المرأة استجابةً للأزمة الديموغرافية؛ حيث نفذت حكومة (Edward III إدوارد الثالث ١٣٢٧–١٣٧٧) تغييرات قانونية تهدف إلى تعزيز الحكم في جميع أنحاء المجتمع، وكان جزء من هذا الهدف هو تمكين الزوج داخل الأسرة من خلال السماح له بالسيطرة بشكل أكبر على ممتلكاته التي يستطيع من خلالها السيطرة على أسرته بشكل أفضل؛ وذلك من خلال توقف المحاكم عن تدقيقها في المنح بحيث يتمكن الرجال بعد ذلك من اتخاذ الترتيبات اللازمة لنقل ممتلكاتهم بطرق كان من الممكن أن يمنعها القانون العام قبل الطاعون.[٢]

ومكنت هذه الترتيبات الجديدة الرجال من التحايل على الحماية القوية التي يوفرها القانون لحقوق المهر والميراث وحق الملكية الأساسي للمرأة، ومطالبة الأرملة بجزء من ممتلكات زوجها الراحل. واستجاب المجتمع على نطاق أوسع لتعزيز الحكم الأبوي من

(1)DeWitte, S.N. The effect of sex on risk of mortality during the Black Death in London, A.D. 1349e1350. American Journal of Physical Anthropology 139, 2009, pp .222-234.

(2) Palmer.R, The Origins of Property in England, Cambridge University Press, Vol35, 2011,PP. 4-8.

خلال تطوير تسلسل هرمي اجتماعي أكثر طبقية، وجدت النساء فيه وضعًا جديدًا. فقد كان الزوج داخل الأسرة هو المهيمن على زوجته وأطفاله وخدمه الذين أصبحوا بعد ذلك يعتمدون بشكل متزايد على حسن نيته لضمان مستقبلهم.

ورفض النظام الأبوي سيطرة المرأة على أية ممتلكات، فكان هذا غير متوافق مع سلطة الزوج، فمنذ الربع الأخير من القرن الرابع عشر وحتى النصف الأول من القرن الخامس عشر، أدى الاتجاه لتقليل من الأهمية الاجتماعية لحق المهر، والذي عزز من تبعية النساء والأطفال والخدم للسلطة الأبوية[١]، إلى انخفاض حقوق المرأة وحقوق ملكيتها، فقد كان القانون العام قبل الموت الأسود يحمي حقوق ملكية الزوجة؛ فمهرها شرط مضمون ويمكنها – بعد وفاة زوجها – استرداد أي جزء من ميراثها الذي نقله زوجها أثناء الزواج، لقد اختلفت وجهات النظر التقليدية حول الوضع الاجتماعي للمرأة في إنجلترا بعد الموت الأسود إلى استنتاجات متضاربة.

فنجد (كارولين بارون Caroline Baron) تصف تلك الفترة بأنها كانت "عصرًا ذهبيًا" [٢]. وأكدت (باربرا هانوالت Barbara Hanawalt) على مشاركة المرأة في الأسواق التجارية والأراضي في لندن. ووجدت أن زيادة سيولة رأس المال بعد الموت الأسود أتاحت للمرأة إمكانية أكبر للوصول إلى الثروة[٣]. وقال (غولدبرغ Goldberg) بأن النساء أصحاب المكانة الأقل قوة وجدن فرصًا أكثر للعمل في المدن المتطورة تجارياً، وهذه الفرص أعطتهن قدرًا من الاستقلال.[٤]

واقترحت (هيلينا جراهام Helena Graham) أن الفرص الاقتصادية والاستقلال الاجتماعي كانت أقل في الريف عنها في المدن، [٥] وعلى الرغم من الزيادة الواضحة في

(1) Pollock .F&Maitlan F.W, The History of English Law Before the Time of Edward I, Vol. 2, Cambridge University Press, 1895, PP .418-422.
(2) Barron.C.M, London in the Later Middle Ages, Government and People, 1200-1500, Oxford University Press, 2004, pp. 45–63
(3) Hanawalt.B.A, The Wealth of Wives: Women, Law, and Economy in Late Medieval London, Oxford University Press, 2007,pp. 50–68
(4) Goldberg. P. J. P. Women in England, C. 1275-1525: Documentary Sources (Manchester Medieval Sources Series), Manchester Univ Pr, 1995.pp. 183–209
(5)Graham.H, "'A woman's work...': Labor and Gender in the Late Medieval Countryside," in Woman Is a
Worthy Wight, ed. P.J.P. Goldberg (Stroud, Glos., 1992), 126-48.

الفرص الاقتصادية، إلا أن الوضع الاجتماعي للمرأة لم يرتفع بالمثل بل انخفض نسبياً[١]، فقد كانت مكانة المرأة وحق ملكيتها في المجتمع شيء غير واضح إلى حد ما، فبعد الموت الأسود تراجع الاهتمام بحقوق ملكية المرأة، ولم تعد المحاكم يقظة نحو التلاعب الذي كان يقوم به الرجال حيال ذلك؛ حيث حدث تغيير اجتماعي واسع وسريع في إنجلترا فزادت سيطرة الرجال على ممتلكاتهم وكان لهم حرية توجيه عائدات الأرض كما يرونها مناسبة مع تجنب حقوق الملكية التقليدية مثل القوامة والزواج والميراث وخاصة المهر، وترتب على هذا التحايل في حق المهر، خاصة بحلول سبعينيات القرن الرابع عشر، إلى تمكين الرجال داخل الأسرة، فيمكن للزوج أن يأمر بتسليم نصيب محدد لأرملته بشرط ألا تتزوج مرة أخرى أو تسليم قصر معين لابنه إذا تزوج حسب رغبته، واستمرت هذه الترتيبات إلى ما بعد حياة الزوج، وهكذا انتهت حقوق الملكية الصارمة التي أنشأها النظام القانوني الأول، وانخفضت الأهمية الاجتماعية للمهر بشكل كبير؛ وأدى ذلك لتجنُّب حق المهر لتعزيز الفكرة الموجودة مسبقًا بأن الزوجة يجب أن تكون تابعة لزوجها، وبدأ معدل مشاركة المرأة في الدعاوى القضائية المتعلقة بالممتلكات – بما في ذلك القضايا المتعلقة بالمهر وبميراث المرأة والأراضي التي كانت الزوجات تمتلكها – بالانخفاض بشكل كبير بعد سبعينيات القرن الرابع عشر، واستخدمت الاتفاقات النهائية بشكل أكبر لتجريد النساء رسميًا من حق الملكية. [٢]

ونظراً لزيادة معدل الوفيات بعد الموت الأسود؛ تدفقت الممتلكات المنقولة والثروة النقدية إلى أيدي القلة القليلة المتبقية وكان منهم النساء، فمن خلال الوفيات ورثت النساء الأرض من أفراد الأسرة المتوفين، وكانت أجزاء من هذه الأراضي لا تزال منتجة وبعضها كان من الأراضي الهامشية المهجورة، والحصول على الأراضي لا يعني بالضرورة سيطرة المرأة عليها أثناء الزواج، فلم يكن لها أي حقوق فعلية فقط اسمية، وكانت شخصيتها القانونية تندرج ضمن شخصية زوجها، وبالتالي فإن جميع حقوق الملكية الخاصة بها كانت من

(1) Smith.S, Women and Power in the Late Medieval English Village: a reconsideration, Journal homepage, Vol 16, Issue 3: 2007, PP. 311-321

(2)Phifer.M.J, Property, Power and Patriarchy: The Decline of Women's Property Right in England after the Black Death,The University of Houston, 2014,P.247

حق زوجها، ويمكنه التصرف فيها كيفما يشاء.(١)

وترتب على زيادة معدل الوفيات أيضاً إلى زيادة العدد النسبي للوظائف نتيجةً لنقص الأيدي العاملة. ومن المؤكد أن بعض النساء في المناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة استفدن من زيادة فرص التوظيف هذه، ولكن لا ينبغي المبالغة في أعدادهن، وأدى الطلب العام على العمال في سياق انخفاض عدد السكان إلى فتح فرص عمل لم يكن بإمكانهن الوصول إليها؛ وذلك نتيجةً لندرة العمال الذكور(٢).

ومع ارتفاع نسبة الوفيات وتركز الثروات في أيدي عدد أقل من السكان استفادت النساء من هذا الوضع الجديد، فبالنسبة للنساء غير المتزوجات الوريثات زادت جاذبيتهن من الناحية الاقتصادية باعتبارهن زوجات. أما بالنسبة للنساء المتزوجات فكانت القضية أكثر تعقيدًا؛ نظرًا لأن أراضيهن كانت تحت سيطرة أزواجهن، وبالتالي لا يمكن فصل المنافع التي تعود على الزوجات عن المنافع التي تعود على الأزواج، وكان من الممكن للزوجة أن تتطلع للسيطرة على ميراثها بعد وفاة زوجها؛ حيث كان يسيطر عليه أثناء حياته، ولقد أدركت الزوجة أن الأرض ملك لها إذا مات زوجها حتى لو كان قد وهبها خلال حياته؛ لذلك اطمئنت الزوجة على وضعها الاقتصادي بعد وفاة زوجها.(٣)

وبالمثل بالنسبة للزوج؛ حيث إن ميراث زوجته ظل تحت سيطرته مدى الحياة حتى بعد وفاتها. وكان ميراث الزوجة يوفر لها وضعا أكثر أماناً في المستقبل، ولقد لعبة الزوجة دور الأم والشريك الاقتصادي، سواء في شؤون العمل أو باعتبارها مديرة لشؤون الزوج أثناء غيابه ومنفذة لوصيته. وعلى الرغم من العنف المنزلي الوحشي الذي كانت تتعرض له، ولكن معظم الزيجات كانت عبارة عن شراكات بين الزوج والزوجة في المجال الاقتصادي، على الرغم من أنها كانت تميل بوضوح لصالح الزوج.(٤)

(1) Phifer.M.J, Property,Power and Patriarchy: The Decline of Women's Property Right in England after the Black Death, PP1-29.

(2) Goldberg. P. J. P. Women in England, C. 1275-1525: Documentary Sources,pp.167–182

(3) Rosenthal.J , Patriarchy and Families of Privilege in Fifteenth Century England, (Philadelphia: University of
Pennsylvania Press, 1991), P.195.

(4) Goldberg. P. J. P. Women in England, C. 1275-1525: Documentary Sources,pp 130–145

ولقد توسعت المشاركة الاقتصادية للأرامل بعد الطاعون، ويأتي هذا التوسع في المقام الأول من عدد التسجيلات التي قامت بها الأرامل في ستينيات وتسعينيات القرن الرابع عشر بسبب ارتفاع معدل الوفيات الذي أحدثه الموت الأسود وانتقال الأراضي لأيدي عدد أقل من الأشخاص. لقد قسمَّ القانون العرفي لمدينة (لندن) عمومًا ممتلكات مواطنيها الذكور المتوفين إلى أثلاث قسام، الثلث ينتقل إلى الوريث بوصفه ميراثاً، والثلث الآخر يخصص للأرملة بوصفه مهراً لها، والثلث الأخير لأغراض تسوية الديون واتخاذ أية ترتيبات نهائية أخرى أصدرها المتوفى بموجب وصيته. (١)

ولقد برز دور المرأة ومساهماتها الفعالة في الكنيسة بعد الموت الأسود؛ حيث اعتبرت النساء المشاركة في أنشطة الرعاية، سواء في شكل عمل فعلي لكنيستهن أو من خلال المساهمات المالية، مظهرًا من مظاهر تقواهن، فقامت بأشكال العمل المنزلي مثل الإصلاح والخياطة والطبخ والتنظيف باعتبارها وسيلة للمساهمة في صيانة الرعية، وساهمت أخريات بالمال أو السلع، التي كانت لديهن بكميات أكبر بعد الموت الأسود، من خلال التبرع بها إلى كنيسة(٢) أبرشيتهن بشكل مباشر أو عن طريق الوصايا. (٣)

وكانت جنازات النساء عادةً ما تمد الكنيسة بالأموال أكثر من جنازات الرجال؛ بسبب الترتيبات الفخمة التي رافقتهن أحيانًا في جنازاتهن. بدأت النساء يتمتعن بحضور جسدي أكثر وضوحًا في الكنيسة، وبدأ المزيد من النساء يقمن بشراء مقاعد دائمة في كنائسهن، وقامت النساء بإنشاء مساحات اجتماعية جديدة لأنفسهن داخل الأبرشيات، وكان وجودهن الدائم في الكنيسة قد خلق إحساسًا بأن الكنيسة هي امتدادًا للمنزل بطريقة ساهمت في ظهور المرأة ومكانتها الاجتماعية، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى أسرهن؛ ولكن لأن الكنيسة كانت تدعم خضوع المرأة للرجل، فعملت على تنظيم سلوكهن بشكل

(1)Phifer.M.J, Property, Power and Patriarchy: The Decline of Women's Property Right in England after the Black Death,,P.80

(2) Davies .M & Kissock.J , "The Feet of Fines, the Land Market and the English Agricultural Crisis of 1315-1322," Journal of Historical Geography,Vol 30 (2004), pp.220, 225.

(3)Phifer.M.J, Property, Power and Patriarchy: The Decline of Women's Property Right in England after the Black Death,P.205.

أكثر صرامة، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. (١)

وهكذا خلقت الظروف الجديدة نظامًا أبويًا مختلفًا تمامًا؛ حيث كان النظام الأبوي في أواخر العصور الوسطى يختلف نوعيًا ما عن النظام الأبوي في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، فتميز النظام القانوني الأول من عام ١١٧٦ إلى عام ١٣٤٨م بحماية قوية لحقوق الملكية للزوجات والأبناء الأكبر سناً، مما منحهم بعض الشعور بالأمان في المستقبل ، ولكن بعد عام ١٣٤٨م اختفت تلك الحماية، حيث سُمح بالتحايل على حقوق المهر والميراث، وأصبح جميع أفراد الأسرة أكثر اعتمادًا على الزوج لوضع الترتيبات اللازمة لمستقبلهم الاقتصادي(٢). وكان تمكين الزوج داخل الأسرة يحاكي السلطة المتزايدة للدولة التي كانت في ذلك الوقت حكومة ذات سلطة قوية، يمكنها التدخل في جميع جوانب المجتمع، واستخدمت القانون باعتباره أداةً لتشكيل المجتمع، وأدت التغييرات الاجتماعية والقانونية التراكمية إلى دعم التوتر بين الجنسين في القانون، وأنشأت نظامًا قانونيًا مختلفًا بعد عام ١٣٤٨م كان يفتقر إلى الحماية الواضحة لحقوق ملكية المرأة التي كانت تمنحها في السابق بعض الأمن والاستقلال، وبعد ذلك أصبحت النساء يعتمدن بشكل أكبر على أحكام مرتبة وفقًا لحسن نية وإحسان أزواجهن أكثر من حقوق الملكية المحددة والمضمونة في القانون العام سابقاً.(٣)

(1)French.K, The Good Women of the Parish: Gender and Religion after the Black Death (Philadelphia University of Pennsylvania Press, 2008, PP.4- 36.

(2) Holt. J, Presidential Address: Feudal Society and the Family in Early Medieval England: IV. The Heiress and the Alien, PP. 1-28.

(3) Hanawalt.B.A, The Wealth of Wives: Women, Law, and Economy in Late Medieval London,pp50–68

- **النتائج**

نستنتج من هذا البحث أن الموت الأسود استطاع أن يغير من الحياة التي عاشها الشعب الإنجليزي؛ فيظهر هذا جلياً في طبيعة العلاقات داخل الأسرة التي مزَّق روابطها الموت الأسود حيث ساد الفزع والخوف بين الناس، وعملوا على الهروب منه تاركين أحبابهم وأهاليهم، أو سالكين طريق العبادة وطلب الغفران من الرب ليرضى عنهم ويرفع عنهم غضبه. ولقد تغيرت الطقوس الدينية لتمنح عفراناً عاماً للناس – الذين عانوا أشد المعاناة –، وعمل رجال الدين والرهبان على مساعدة الناس معرِّضين أنفسهم لخطر الموت؛ حيث حصد الطاعون منهم ومن النخبة الكثيرين وهذا ما سجلته لنا الوثائق المعاصرة التي تجاهلت العامة كالمعتاد، ولكننا نستنتج منها أن الوفيات بشكل عام كانت مرتفعة بين مختلف الطبقات. ونجد أن الموت الأسود اختار ضحاياه من هؤلاء الضعفاء الذين عانوا من أوضاع المجتمع الصعبة قبل الطاعون؛ فأرهقت أجسادهم النحيلة المجاعات والأوبئة ليكونوا فريسة سهلة للموت الأسود عند وصوله. ونتيجة لهذه الوفيات تغيرت الأوضاع المعيشية لمن بقي على قيد الحياة ومنهم النساء، فعلى الرغم من أنهن كنَّ يرثن كثيراً من الموارد، ولكن وقف أمام استقلالهن وقوتهن المجتمع الذكوري وكنيسته ليجعلهن خاضعات له بكل قوة.

المصادر والمراجع

- **قائمة المصادر:**

1. Aberth.J, The Black Death ,The Great Mortality of 1348-1350: A Brief History with Documents, Palgrave Macmillan New York, 30 April 2016
2. Boccaccio.G, the Decameron, trans. by Mark Musa and Peter Bondanella, New American Library, 1982.
3. Horrox, R. The Black Death (Manchester Medieval Sources), Manchester University Press, 1994.
4. Knighton.H, Knighton's Chronicle 1337-1396 (Oxford Medieval Texts), 1996.

- **المراجع الأجنبية المترجمة :**

١. جوزيف بيرن ، الموت الأسود، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة،٢٠١٣.

٢. روبرت س. جوتفريد ، الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٧.

- **المراجع الأجنبية :**

1. Barron.C.M, London in the Later Middle Ages, Government and People, 1200-1500, Oxford University Press, 2004.
2. Boucher. C. E, the Black Death in Bristol, Transactions of the Bristol and Gloucestershire Archaeological Society, Vol.60 (1938)
3. Britnell.R, The Black Death in English towns, Urban History 1 October 1994.
4. Champion.J, London's Dreaded Visitation (Historical Geography Research Paper Series, 1995
5. Clyn.F.J, Annalium Hiberniae Chronicon, (Dublin: Irish Archeological Society, 1849
6. Cohn, S. Plague violence and abandonment from the Black Death to the early modern period. Annales de démographie historique. 2017.
7. Cohn, S.K. The Black Death Transformed: Disease and Culture in Early Renaissance Europe. Arnold, London. 2002.
8. Coulton. G. G, The black death, London: Ernest Benn, 1929

9. Courtenay. W.J, The Effect of the Black Death on English Higher Education, Vol. 55, No. 4 .1980
10. Creighton.C, A History of Epidemics in Britain, The University Press, 1891.
11. Davies .M & Kissock.J , "The Feet of Fines, the Land Market and the English Agricultural Crisis of 1315-1322," Journal of Historical Geography,Vol 30 (2004)
12. DeWitte, S.N. & Wood, J.W. Selectivity of the Black Death with respect to preexisting health. Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America Vol, 105 (5) 2008.
13. DeWitte, S.N. The effect of sex on risk of mortality during the Black Death in London, A.D. 1349e1350. American Journal of Physical Anthropology 139, 2009.
14. DeWitte,S, Age Patterns of Mortality During the Black Death in London, A.D. 1349–1350, Journal of Archaeological Science, Vol 37 (2010).
15. Dohar.w, the Black Death and Pastoral Leadership: The Diocese of Hereford in the Fourteenth Century, The Journal of Ecclesiastical History, Vol 47, Issue 2, 1996.
16. Forrest. I, The Politics of Burial in Late Medieval Hereford, The English Historical Review, Vol 125, Issue 516, October 2010.
17. French.K, The Good Women of the Parish: Gender and Religion after the Black Death (Philadelphia University of Pennsylvania Press, 2008
18. Gage, T.B. Mathematical hazard models of mortality: an alternative to model life tables. American Journal of Physical Anthropology 1988, Vol.76 (4).
19. Gasquet.F.A, The Great Pestilence (A.D. 1348-9), Now Commonly Known as The Black Death, Simpkin Marshall, Hamilton, Kent and Co. Limited. London, 1893
20. Giladi.A, Mortality enfand and child, journal of the economic and social history of the orient Vol 32, 1989.
21. Goldberg. P. J. P. Women in England, C. 1275-1525: Documentary Sources, Manchester University Press, 1995.

22. Gottfried.R, Bury St. Edmunds and the Urban Crisis: 1290-1539, Princeton University Press. 1982.
23. Gottfried.R, Epidemic Disease in Fifteenth Century England: The Medical Response and the Demographic Consequences, Leicester University Press, 1978.
24. Gowland, R.L., Chamberlain, A.T. Detecting plague: palaeodemographic characterisation of a catastrophic death assemblage. Antiquity 79 (303), 2005
25. Grainger, I., Hawkins, D., Cowal, L., Mikulski, R. The Black Death Cemetery, East Smithfield, London. In: Museum of London Archeology Service Monograph, vol. 43. 2008.
26. Green. B& Young.R, Norwich the Growth of A City, Norwich Castle Museum, 1968.
27. Hanawalt.B.A, the Wealth of Wives: Women, Law, and Economy in Late Medieval London, Oxford University Press, 2007.
28. Hatcher.J, Rural Economy and Society in the Duchy of Cornwall 1300–1500, Cambridge University Press 2008.
29. Hawkins.D ,The Black Death and the new London cemeteries of 1348, Antiquity , Vol 64 , Issue 244 , September 1990
30. Holt. J, Presidential Address: Feudal Society and the Family in Early Medieval England: IV. The Heiress and the Alien," Cambridge University Press: 12 February 2009.
31. Latham, R & Matthews, W, the Diary of Samuel Pepys, vol. VII (Berkeley: University of California Press, 2000
32. Margerison, B.J., Knüsel, C.J., Paleodemographic comparison of a catastrophic and an attritional death assemblage. American Journal of Physical Anthropology, Vol 119 (2), 2002.
33. Milner, G.R. & Wood, J.W. & Boldsen, J.L. Paleodemography, Biological Anthropology of the Human Skeleton. Wiley-Liss, New York, 2008.
34. Mullett.C. F, the Bubonic Plague and England, University of Kentucky Press, 1956.
35. Palmer.R, the Origins of Property in England, Cambridge

University Press, Vol35, 2011.
36. Phifer.M.J, Property, Power and Patriarchy: The Decline of Women's Property Right in England after the Black Death, the University of Houston, 2014.
37. Platter, F, Beloved Son Felix: The Journal of Felix Platter a Medical Student in Montpellier in the Sixteenth Century, Frederick Muller, London, England, 1961.
38. Pollock .F&Maitlan F.W, The History of English Law Before the Time of Edward I, Vol. 2, Cambridge University Press, 1895.
39. Postan .M, medieval agriculture and general problems cam. Bridge, 1956.
40. Razi, Z. Life, Marriage, and Death in a Medieval Parish: Economy, Society, and Demography in Halesowen, 1270e1400. Cambridge University Press. 1980.
41. Renouard.Y, Conséquences et intérêt démographique de la Peste noire de 1348, Institut National d'Etudes Démographiques , 1948
42. Rosenthal.J, Patriarchy and Families of Privilege in Fifteenth Century England, (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1991.
43. Russell, J.C., British Medieval Population. University of NewMexico, Albuquerque.1948.
44. Shrewsbury. J. F. D., A History of Bubonic Plague in the British Isles, Cambridge University Press, 2005.
45. Smith.S, Women and Power in the Late Medieval English Village: a reconsideration, Journal homepage, Vol 16, Issue 3: 2007.
46. Thompson .J.W., the aflrmath of th black death and the after math of the great war : The University of Chicago Press ,1921,
47. Thompson.A, Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the years 1347-1350, Archaeological journal, Vol 68, 1911.
48. Thompson.A, Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the years 1347-1350, Archaeological journal, Vol 68,

1911.
49. Thompson.H, the Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York, Archaeological Journal Volume 71, Issue 1, 1914.
50. Thrupp, S. L., the Merchant Class of Medieval London, 1300-1500, University of Michigan Press, 1989.
51. Waldron, H.A. Are plague pits of particular use to palaeoepidemiologists? International Journal of Epidemiology Vol 30, Issue 1, 2001.
52. Zuber.C. K, Plague and Family Life, In (Jones.M, The New Cambridge Medieval History), ambridge University Press: 2008.